إسرائيل في طريق المواجهة الحتمية

ياسر مناع

مقدمة

ثلاثة عمليات فدائية توزعت بين بئر السبع جنوبًا، والخضيرة شمالًا، حتى منطقة بني براك بتل أبيب في المركز؛ تركت وراءها أحد عشر قتيلًا إسرائيليًا، وأربعة فلسطينيين شهداء في أسبوع. وتزامنت موجة العمليات، مع تحذيرات أطلقتها أجهزة الأمن الإسرائيلية من تصعيدٍ محتمل، خاصة مع اقتراب شهر رمضان، إلا أن الأهم من ذلك كله تمثل في هوية منفذي عملتي بئر السبع والخضيرة، فهم من فلسطيني 48، فعلى الأقل، اثنان منهم اعتقلوا سابقًا في السجون الإسرائيلية بتهمة الانتماء إلى تنظيم الدولة الإسلامية "داعش". وهنا، تخشى إسرائيل أن يقوم أفراد من فلسطيني 48 بتنفيذ هجمات مماثلة، بذريعة الانتقام أو التقليد. في أعقاب ذلك مُنح جهاز الأمن العام الإسرائيلي "الشاباك" حرية العمل العلني، لتعزيز عمليات جمع المعلومات حول العرب في إسرائيل، وخاصة أولئك الذين صدرت بحقهم إدانات سابقة بتهم، أو شبهات تصنف على أنها أمنية.

خلفية تاريخية

بعد فشل المفاوضات في حديقة البيت الأبيض، أشعلت زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق أريئل شارون للحرم القدسي في عام 2000 "انتفاضة الأقصى". لم تقتصر الانتفاضة على الضفة الغربية وقطاع غزة، بل امتدت إلى الأراضي المحتلة عام48. فشهد في الأول من أكتوبر من ذات العام مواجهة بين الفلسطينيين والشرطة الإسرائيلية، والتي عرفت باسم "هبة أكتوبر" كامتداد طبيعي للوضع العام في الضفة الغربية وغزة، راح ضحيّتها 13 شابًا فلسطينيًا[1].

[1] المركز القانوني لحقوق الاقلية العربية في إسرائيل "عدالة"، هبة أكتوبر 2000، 28/9/2020، على الرابط: https://www.adalah.org/ar/content/view/1294

على الرغم من الاستنتاجات التي توصلت إليها لجنة أور، اللجنة المخصصة للتحقيق في الأحداث، ضد المتورطين من ضباط وقادة في الشرطة الإسرائيلية، إلا أنه تم إغلاق جميع الملفات ولم توجه أصابع الاتهام إلى أي متورّط ولم تتم مساءلة أحد على الأقل[2].

في صباح يوم 9 أيلول/ سبتمبر 2001، وقع انفجار في محطة سكة حديد مدينة نهاريا؛ استهدف مجموعة من جنود الاحتلال. وكان الأهم في الأمر أن منفذ العملية يحمل الجنسية الإسرائيلية، ويدعى محمد شاكر حبيشة من سكان قرية أبو سنان[3].

بعد ذلك، تصدرت "انتفاضة السكاكين" مشهد في عام 2015، وانتشرت على نطاق واسع في الضفة الغربية، والقدس، وأراضي48، وأصبحت ظاهرة لم تتوقف حتى يومنا هذا، التي اندلعت على خلفية التصعيد الإسرائيلي في القدس، ومحاولات التقسيم الزماني والمكاني للمسجد الأقصى[4]. مما شكل مصدر إزعاج للمؤسسة الإسرائيلية، برمتها وأوقعتها في حالة من الإرباك؛ كونها سلوك غير منظم، ومعبء بشحنة هائلة من الإهانة تشكلت بسبب الممارسات الإسرائيلية خصوصًا في الداخل المحتل، وحالة الإحباط العام التي ساهمت السلطة الفلسطينية أيضًا في تكوينها، مما ولد شعورا بضرورة العمل المقاوم ضد الإحتلال بأي شكل من الأشكال.

خلال معركة سيف القدس في صيف عام 2021، أثارت مشاركة فلسطينيي48 قلق المؤسسة الإسرائيلية، فهذه المرة الأولى التي يتوحد فيها الفلسطينيون في كل أماكن تواجدهم، لذا شرعت المؤسسة الإسرائيلية بصياغة استراتيجيات، منطلقة من أن هذا الإنخراط بمثابة جبهة تهديد حقيقية، وليس محتملة فقط في أي تصعيد قادم.

في كانون الثاني/ يناير من العام الجاري، أطلقت إسرائيل مشروعًا لتجشير النقب من خلال صندوق القومي اليهودي، وتصنيف بعض الأراضي كغابات ومحميات طبيعية لإضفاء الشرعية على مصادرة الأراضي التي يسكنها حوالي 300 ألف فلسطيني، على مساحة لا تزيد

[2] المركز القانوني لحقوق الاقلية العربية في إسرائيل "عدالة"، "بين أكتوبر 2000 واستشهاد أبو القيعان"، 24/9/2020، على الرابط: https://www.adalah.org/ar/content/view/10137

[3] موقع كتائب الشهيد عز الدين القسام، 10/9/2001، على الرابط: https://2u.pw/DVKqq.

[4] مركز الشرق العربي للدراسات الحضارية والإستراتيجية – لندن، "انتفاضة السكاكين أحداث ومجريات ومواقف"، على الرابط: https://2u.pw/lw9uc

عن 3%[5]، أعقبها مواجهات عنيفة بين مئات المتظاهرين. شملت حملة اعتقالات واسعة، في سبيل تمرير المخططات الاستيطانية.

في صباح يوم 15 آذار/ مارس من هذا العام، قُتل الشاب سند سالم الهربد برصاص عناصر من وحدة "المستعربين" تابعة للشرطة خلال عملية مشتركة مع جهاز الشاباك[6]. واشتدت حدة الحادث حتى بلغت ذروتها عندما نفذ محمد أبو القيعان من سكان بلدة حورة النقب عملية طعن في مدينة بئر السبع[7]. تلاها عملية إطلاق نار في مدينة الخضيرة نفذها أيمن وإبراهيم إغبارية من مدينة أم الفحم[8].

أهمية عمليتي بئر السبع والخضيرة

تأتي عملية بئر السبع في ظل ظروف استثنائية، مع تصاعد التوترات في النقب، سيما الإعلان عن تشكيل المليشيا المدنية المسلحة "سرية بارئيل" التي شكلها حزب "عوتسما يهوديت"، المدعومة من الشرطة الإسرائيلية وحكومة مدينة بئر السبع[9]، بحجة إنقاذ النقب من انعدام الأمن الشخصي، ومع حلول شهر رمضان من العام الجاري، وكل ذلك يجعل الحكومة الإسرائيلية تواجه تحديات فيما يتعلق بمواصلة مهمتها[10].

هذا يعني أن العمليات الأخيرة هي استثناء، مقارنة بانتفاضة السكاكين. يعد التخطيط المسبق، واستخدام الأسلحة الآلية والرغبة في التنفيذ من سماتها المميزة[11]. نتيجة لذلك، تخشى المؤسسة الإسرائيلية من أن هذه العمليات ستخلق مصدر إلهام لمنفذين مفترضين، الذين قد يحاولون الانتقام أو التقليد، ونتيجة لذلك، وقوع المزيد من العمليات. عدا أن منفذيها من فلسطينيي الداخل المحتل عام 1948، يتمتعون بقدرات الوصول إلى أماكن مختلفة، بما في ذلك

---

[5] شبكة قدس الإخبارية، "ما هي أهداف الاحتلال من تشجير النقب؟"، 17/1/2022، على الرابط: https://cutt.us/2BLVA

[6] مرجع سبق ذكره

[7] إليئور ليفي، "مفذ عملية بئر السبع: معلم مؤيد لداعش حاول السفر إلى سوريا"، يديعوت أحرنوت، 22/3/2022، على الرابط: https://www.ynet.co.il/news/article/rkx4rpdz9

[8] شلومي جباي، "المنفذين في الخضيرة: أقرباء من أم الفحم، داعش تتبنى المسؤولية على العملية"، موقع وللا، 27/3/2022، على الرابط: https://cutt.us/nPj4j

[9] ناتي يفت، "ناشط في عوتسما يهوديت أقام سرية مسلحة في النقب"، هآرتس، 17/3/2022، على الرابط: https://cutt.us/RLsK3

[10] عاموس هرائيل، "الوضع المتفجر في النقب ضرورة إدخال وزير الأمن إلى الصورة"، هآرتس، 5/11/2021، على الرابط: https://cutt.us/0LcPP

[11] عاموس يادلين، " موجة عمليات دامية في المدن الاسرائيلية"، 31/3/2022، على الرابط: https://twitter.com/YadlinAmos/status/1509320794232471553?t=x03k7QlkZYUQHG19TlfQMQ&s=08

الأماكن الحساسة، لأنهم يحملون هويات إسرائيلية. كما لا يمكننا إغفال الانتشار الهائل للأسلحة في الوسط العربي، والذي ينعكس بدوره على طبيعة العمليات.

تنبع أهميتها أيضًا من توقيتها، فكان يُتوقع أن تكون ساحة الضفة الغربية بالدرجة الأولى حافلة بالأحداث والمواجهات خلال رمضان، جنبًا إلى جنب مع قمة النقب التي حضرها وزراء خارجية الإمارات ومصر والبحرين والمغرب، وكذلك إسرائيل والولايات المتحدة. أضف إلى ذلك أن مكان العمليتين؛ لم يكن متوقعًا للأجهزة الأمنية الإسرائيلية، التي تركز كل جهدها على غزة والضفة والقدس، وهذا يعني أن تحدٍ معقد وجديد مثال أمامهم يتطلب المزيد من القمع والعنف المنظم.

مؤشرات من وسط المواجهة

يمكن استخلاص مؤشرات كثيرة من عمليتي الخضيرة وبئر السبع، اللتين أسفرتا عن مقتل 6 إسرائيليين واستشهاد منفذي العمليتين. ولعل الدلالة الأولى، ظهور العجز في توفير الأمن للمستوطنين سيما في أراضي 48، ما يعني أن قدرة الردع آخذة بالتلاشي، ليس فقط في غزة أو الضفة، بل في مركز الدولة. إضافة إلى أنهما أثبتتا فشل كل محاولات الأسرلة والدمج، وتذويب الهوية الوطنية للفلسطينيين. كما تثبت الأحداث أن سيرورة العمل آخذة بالتصاعد، سيما بعد معركة سيف القدس، فالفصل الجغرافي الذي سعت إسرائيل إلى إقامته بين سكان أراضي 48 والضفة الغربية، لم يعق تصاعد أشكال المقاومة. كما تعكس فقدان الحكم والسيطرة في النقب.

تداعيات الأحداث على إسرائيل

يثير انخراط فلسطينيي الداخل في العمليات الفدائية، قلقًا إسرائيليا كبيرًا، في ظل احتجاجات أهل النقب التي ما زالت قائمة رفضا لتهجيرهم قسريا من منازلهم، مما يتطلب من إسرائيل ككيان يمتلك قدرات عسكرية وتكنولوجية فائقة التطور، اتخاذ إجراءات عقاب جماعية على هيئة قوانين، بدءًا بالاعتقالات، لا سيما الاعتقالات الإدارية، ومن خلال تكثيف المتابعة

للنشطاء والفاعلين السياسيين، وكل ذلك يتطلب تعزيز سلطة جهاز الأمن العام الشاباك، تحت المبررات والحجج الأمنية، بعد اتهامه بالتقصير والفشل[12].

قد يتحتم على المؤسسة الإسرائيلية إعتبار قضية النقب ضمن سلم الأولويات الوطنية الإسرائيلية، من باب الإحتواء، والتعامل مع النقب على أنه أهم التحديات للأمن القومي الإسرائيلي، وبالتالي ستكون بحاجة لتضافر كافة جهود مختلف المؤسسات والأجهزة الإسرائيلية، والاستثمار في التعليم والبنية التحتية والتشغيل عند البدو[13]. في وجه آخر، قد تنهي هذه العمليات ولو جزئيًا، تقاعس الشرطة الإسرائيلية ولامبالتها في التعامل مع الجريمة، وظاهرة انتشار الأسلحة غير المشروعة، وفقًا لاعتبارات إسرائيل في المجتمع العربي، على أمل النجاح في الاحتواء وسهولة السيطرة عليه، للحد من أي مواجهة أو عمليات مستقبلة.

كل ذلك يجبر الأجهزة الأمنية الإسرائيلية على إعادة تقييم الوضع الأمني بشكل جذري، والبحث عن حلول شبه دائمة على المدى المتوسط والبعيد، لا الآني فقط، لأن هذه العمليات تعيد للأذهان الهبة العنيفة التي اجتاحت المدينة المختلطة التي يسكنها العرب واليهود في مايو 2021، وإمكانية تكرارها هذا العام بشكل أشد.

خاتمة

يرى المسؤولون في المؤسسة الإسرائيلية هذه العمليات على أنها مؤشر خطير لتحديات حقيقية على جبهة حساسة للغاية، وهو أمر أقرب قليلًا إلى الحرب الأهلية في بعض النواحي. فقد أثبت التطورات الميدانية الأخيرة، التي أسفرت عن مقتل عدد من الإسرائيليين في مواقع مركزية، على استحالة سياسية الفصل الجغرافي والسياسي والتأثير بين فلسطيني 48 والضفة الغربية وقطاع غزة، والهادفة إلى توطيد أركان المشروع الإستعماري.

ماسبق؛ قد يدفع السلطات الإسرائيلية إلى استخدام المزيد من العنف الرسمي وغير الرسمي – من خلال المستوطنين – المنظم وسن قوانين عنصرية تجعل من الحياة في المجتمع

[12] ينيف كوبوفيتش، " العمليات الأخيرة تشير إلى فشل الشاباك"، 29/3/2022، هآرتس، على الرابط:
https://www.haaretz.co.il/news/politics/.premium-1.10704085
[13] تال ليف رام، " الجنوب هو أولوية وطنية، موقع أف أم 103، 23/3/2022، على الرابط:
https://103fm.maariv.co.il/programs/media.aspx?ZrqvnVq=IJLDIJ&c41t4nzVQ=GJL

العربي غير محتملة، فقد أصبح من الواضح أن المواجهة يمكن أن تحدث في أي وقت، على الرغم من من الخلافات السياسية بين وجهات النظر بين الفلسطينيين أنفسهم.

لكن حتى الآن، لا توجد مؤشرات على إمكانية اندلاع مواجهة جديدة مماثلة لتلك التي اندلعت الصيف الماضي، رغم تراكم الأحداث وتوالي العمليات، لا سيما في ظل التسهيلات التي قدمتها إسرائيل للفلسطينيين عشية شهر رمضان، والجهود السياسية المبذولة من قبل السلطة الفلسطينية ومصر والأردن، مما يعني أن إسرائيل ستستمر في مشروعها الاستعماري القائم على الإبادة بكافة أشكالها، وأن كل الجهود المبذولة لا تعمل إلا على تأخير المواجهة القادمة فترة من الزمن.